الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

ما قبل زيارة بوش وما بعدها

من نتائج زيارة الرئيس الامريكي بوش الى عدد من بلدان الشرق الاوسط ومنها اسرائيل، أن الاخيرة أطلقت لنفسها العنان في غزة، فراحت تكتسح وتقتل وتهدم لكأنها تفتح الطريق بواسطة الجرائم الى تنفيذ الجزء الخاص بها من خريطة الطريق، ومما أعلنه بوش من أمل في رؤية دولة فلسطين القابلة للحياة. لا يستطيع المرء أن يفسر التصعيد الاسرائيلي الا بوجود ضوء اخضر (جدا) من أمريكا، ومن بوش شخصيا، كما لا يستطيع الا أن يعتبر ذلك جزءا من اتفاقات سيئة النية في نهاية التحليل بين اسرائيل وامريكا- اتفاقات لا تخشى ايضا أن تبدو على الملأ سيئة الادب بالمعنى الاخلاقي. ما الصورة النهائية من كل هذا؟ إنها ولاشك صورة هزلية للحل المتفق عليه بين اسرائيل وامريكا للقضية الفلسطينية، أو ربما هي صورة اللاحل، المأزق، إبقاء الجروح والجثث والتفاهة السياسية تتفاعل وتتفسخ.

من المؤكد أن غزة محكومة اليوم بمجنونين: حماس واسرائيل. وكما أشرنا في مقال سابق أن اسرائيل صنعت العدو الذي يعكس صورتها بوصفها دولة يهودية، فليس لحماس كذلك أن تبدو اليوم بغير صورتها بوصفها صاحبة مشروع ديني وليس وطنيا. هذه الصورة تريح اسرائيل، وهي تسقطها على الجسد الفلسطيني المتآكل كله، لكي تبدو متطابقة مع مشروعها الأصلي كدولة تفترض الدين لوجودها، وكدولة تناضل ضد (تفسير) ديني يهدد وجودها. إن التجريد هو السمة الأساسية للتفكير الديني على المستوى السياسي، إنه يلغي الواقع ولا يبقي أمامه غير الهدف. هذا ما يفسر وحشية اسرائيل والطريقة العدمية التي تحارب بها حماس معرضة الشعب في غزة الى دمار كامل.

تحتاج اسرائيل الى حماس أكثر من أي وقت مضى، وهي التي صنعتهاعلى اية حال، وجعلت من انتصارها (الديمقراطي) ممكنا بعد أن حطمت قوى السلطة الفلسطينية ذات الاطار العلماني، وهي اليوم تحرج السلطة الباقية في الضفة أمام شعبها بعدوانها الغاشم في غزة.

تحتاج اسرائيل الى عدو مثل حماس، محاصر في رقعة أرض صغيرة، ومحاصر من العرب والعالم، ويطلق بين الحين والحين صواريخ بائسة ويرسم شارة النصر بأصابعه أو يجمع أصابعه بقبضات مهددة.

نحن نعرف بالتجربة كيف تصنع اسرائيل أعداءها وبأي صورة تريدهم، لكن السؤال: كيف يمكن لدولة مثل الولايات المتحدة أن تؤيد مثل هذه التفاهة السياسية المؤطرة بالدين؟ هل تظن أن دولة تعلن نفسها بأنها دولة لليهود لا تصنع دولة تعلن عن نفسها انها دولة اسلامية بمزيد من القوة والتحدي؟ الا يحدث هذا اليوم؟ الا تخاف امريكا نفسها منه؟

في الشرق الاوسط وقفت الولايات المتحدة دائما ضد مفهوم الدولة الحديثة، ولقد ساعدت موضوعيا على انتصار التجريد واللاوقعية والتفاهة السياسية، فلا تلوم الا نفسها إذا ما حصدت كراهية الجميع!

وليد الحيدري

صنعاء: إختلاط الأزمنة

فالح عبد الجبار
كاتب

تنبئك صنعاء، على الفور، بما ينتظرك، سيان ان كنت بعد على متن طائرة البوينغ، او في ردهة المطار، او في القاعة المركزية بجامعة صنعاء. فوسط المسافرين، او بين حشود المهاجرين، ورجال الحدود والجمارك، او في زحمة المؤسسة الاكاديمية، ثمة شيء مشترك هو: اختلاط الأزمنة.

يقرأ المرء هذا الاختلاط في بطون الكتب.

لكنه يبرز للعيان لحظة يطأ المرء أديم صنعاء.

للتاريخ هنا، كما في اصقاع اخرى، جلال القدم. في الصين، وجل آسيا، ثمة عبادة الاسلاف. في هذه البقعة لا موجب لعبادة الاسلاف، فهم حاضرون. يطالعك التاريخ هنا أولاً في الصروح المعمارية العملاقة: مبان حجرية، بعدة طبقات، تزدان بدرابزونات مزركشة، ونوافذ مزوقة بالجبس الابيض، تعلوها نصف دائرة يسمونها " قمرية " (نسبة الى القمر) تحوي كل اشكال النقوش المعمولة من الجبس، او الزجاج الملون.

تجثم صنعاء التاريخ وسط صنعاء الحديثة، بل في القلب منها، محتفظة بقبابها، ودروبها الضيقة، واسواقها القديمة ذات الابواب الخشبية.

اما صنعاء الحديثة فهي، شأن المدن الحديثة الاخرى، مجرد حلقات عشوائية تنمو حول وخارج التاريخ: مبان حديثة، سيارات المرسيدس والتويوتا والساب، وآخر صيحات الفنادق، موفنبك.

يبهرك المدى الزمني الممتد الى مملكة سبأ (نحو ١٢٠٠ عام قبل الميلاد). هذه بلاد مملكة حمير، وسد مأرب الاسطوري بمغزاه (شيد عام ٧٥٠ قبل الميلاد وانهار عام ٦٠٠ ق. م، أي قبيل ظهور الاسلام بعقدين ونيف)، مثلما يفاجئك المعمار الحديث، ومظاهر الثراء الجديد المعلن في مؤسسات الدولة.

ومثلما ترى الانشطار والتجاور بين صنعاء القديمة وصنعاء الجديدة، في المباني، تراه في مظاهر اللباس، بين البدلة الاوروبية (مع او بلا ربطة عنق) واللباس التقليدي: الوزرة وعمرة الرأس، والنطاق المزركش المزدان بالخنجر اليمني المعقوف (الجنبية)، والكحل في العين (للذكور).

لكن المظهر الابرز لازدواج الماضي والحاضر يتجلى في جامعة صنعاء.

ففي المؤتمر الاول لعلماء الاجتماع (٥-٧ كانون الثاني – يناير) احتشد جمع غفير من المع الاكاديميين في اليمن.

في قاعة " جمال عبد الناصر "، يستمع المرء الى احدث البحوث في منهجيات العلوم الاجتماعية، التي تقارب موضوعات معقدة، ونظريات شتى حداثية وما بعد حداثية. ويجيل المرء نظره في القاعة العملاقة، ليجد، مبهوراً، ان ثلث المشاركين من النساء، باحثات وطالبات. ويكاد قطاع المرأة في القاعة ان يكون بمثابة خيمة سوداء واحدة، فالمرأة هنا مجللة برداء اسود، وغطاء رأس اسود، ونقاب أسود، لا ترى منه سوى عينين سوداوين او عسليتين (حسب مصادفة الوراثة). ويضاف الى ذلك في احوال، قفاز يد أسود، وجوارب سود.

أحصيت، في فضول، وجود نحو خمسين امرأة من مجموع مئة وخمسين ضيفاً، واحصيت نحو اربعة وجوه سافرة. لم أشاهد شعر امرأة قط، باستثناء الفنانة آمنه النصيري. (هناك لوحة للفنانة النصيري تصور قططاً سود لا تظهر من ملامحها المفصلة سوى العينين، وهي ترميز مباشر للامتثال الجمعي).

بادرتني سيدة شابة بالترحيب، فارتبكت لجهلي بهوية السيدة، حتى انبأتني انها سكرتيرة المؤتمر، واننا التقينا صباح اليوم الاول. اعتذرت لعجزي عن تبين ملامحها، فتخيلت انها ابتسمت من وراء النقاب، شارحة لي ان الناظر يشخص هوية المرأة من عينيها. مثل هذه الفراسة عصية على كهل مثلي، ينظف عدسات نظارته مرتين في اليوم، ليدرأ الغبش المستديم. علمتني صنعاء فناً جديداً: حفظ هوية المراة من زركشات مميزة فضية او ذهبية على ردن جبتها السوداء، او، وهذا أدق، التفريق بين النساء اعتماداً على المرتدية قفازاً من العارية من قفاز. ووجدت ايضاً علامات فارقة اخرى: بعض النساء يرتدين سراويل تحت القفطان الاسود، سراويل جينز شارلستون، او جينز عادي، بعضها ازرق داكن. بعض الاقدام عارية، وبعضها يطل باظافر ملونة. صباغ الاظافر علامة اخرى.

هذه التفاصيل العملية اسعفتني في التمييز لفترة. فالملابس والاصباغ والزركشات، خلافاً لمعالم الوجه، تتغير بين ليلة وضحاها.

ما كان " أزمة هوية " عندي، كان موئل أمان معلن عند جل النساء المتشحات بالسواد. فالحجاب الكامل، بكلمات بعضهن، ينجيهن من اللوم، والضغط، ويمنحهن حرية الوجود في عالم ذكوري ضاغط.

ويقف الحجاب الاسود في تضاد صارخ مع عقول هؤلاء النسوة الاكاديميات، بما انتجنه من أوراق بحث مميزة تعتمد احدث النظريات. كيف يتأتى لفوكو وماكس فيبر، وبورديو، ودوركهايم ان يتعايشوا مع هذا الحجر التام للكائن البشري وراء اللباس الاسود؟ لا ادري.

تبدو الحياة كلها مخترقة من اقصاها الى اقصاها بهذا الانفصام (الشيزوفرينيا) المجتمعي، بين شمال عاش في انغلاق شبه سرمدي، وجنوب فتحه البريطانيون عنوة على العالم الحديث. فها هنا بقي الراديو محرماً حتى الستينات. وكانت الصحف والمجلات العربية القادمة الى اليمن في الخمسينات ومطالع الستينيات من القرن المنصرم تدخل قصر الامام ولا أحد سواه.

ويمضي الانفصام الى مؤسسات السلطة الاجتماعية والدينية. فثمة المشايخ (زعماء القبائل) والعقّال (جمع عاقل) أي وجهاء المدن، وثمة السادة (ذوو المكانة الدينية)، وثمة رجل الايديولوجيا (السياسي الحديث)، وثمة العسكري والتكنو قراط (رجل الدولة الحديث).

هذه الخلائط وغيرها منظمة في دوائر شبه مغلقة، تغتذي في ديمومتها على وعورة المنطقة الهضبية الجبلية التي تحتل الربع الغربي من مستطيل اليمن بمحاذاة ساحل البحر الاحمر، كما تغتذي على امتدادات الصحراء في النصف العلوي من المستطيل نفسه. لا طرق هنا ولا ادارة. عاشت هذه الاصقاع، وما يزال بعضها يعيش، في عزلة عن السلطة المركزية.

لم تقتحم طرق الحداثة جل هذه الاصقاع، التي تناوبت عليها الاديان من وثنية ويهودية ومسيحية، فاسلام، مثلما تعاقبت عليها وتداخلت فيها المذاهب: الزيدية، الشافعية، الحنفية والحنبلية. في تبدلات اردية الثقافات العليا، بقي التنظيم الاجتماعي شبه مستقر، او راكد في معظم انحاء اليمن. وكما في جل العالم القديم، تتركز مظاهر الحداثة في العاصمة، او على التخوم الساحلية الاكثر احتكاكاً بالعالم.

اشتكى باحث صنعاوي من ان اهل صنعاء الاصليين اختفوا بعد زحف القبائل. هذا حال بغداد ايضاً بعد هجرة الارياف! ولاحظ جنوبي ان حجاب المرأة بدأ يزحف الى الجنوب السافر. لكن شمالياً أشار الى ان السفور الجنوبي اخذ يشق طريقه الى الشمال. واطلق آخر شكاواه من " عقبة " القبائل أمام التقدم، واعترض شكاك من أن الدولة الحديثة هي مجرد قبيلة اخرى.

في كل هذا يبدو التاريخ بجلاله وقد سيته جاثماً على اليمن، فأسلافه حاضرون في كل زوايا المجتمع، شاهرين سيف القدم. الميت يمسك بتلابيب الحي، التاريخ القديم ينيخ على التاريخ الحديث بكل جبروته.

لعل الحضارات القديمة تدفع ثمن مجيئها المبكر أضعافاً.

لوحة للفنانة اليمانية: آمنه النصيري
50x50سم إكريلك على قماش

هل تجتاح ثورات الجوع العالم العربي في ٢٠٠٨؟

يقول ميشال سيباد وهنري غونال في كتابهما "الجوع"، إن تاريخ الجوع في العالم هو تاريخ البشرية، وتاريخ البحث عن الغذاء. والتاريخ البشري يمتلئ بلائحة طويلة من المجاعات التاريخية المعروفة، وهي ظواهر مأساوية ومحزنة، اضطرت جزءاً كبيراً من البشر إلى أكل الجيف والروث، وهي الصور الأكثر فظاعة لمدوني أخبار أهوال المجاعة. وكان الكفاح ضد الجوع من أقدم المعارك البشرية. كما أصبح الجوع مشروع البشرية كلها منذ الحرب العالمية الأولى، وبعد انهيار الاقتصاد العالمي عام ١٩٢٩، ومنذ أن انفجرت أكبر فضيحة في عصرنا في جنيف زهاء عام ١٩٣٣، وفي أروقة جمعية الأمم المتحدة، نتيجة للمجاعة البشرية العامة، حيث مات أكثر من ٦ ملايين من البشر، نتيجة لهذه المجاعة في الفترة ١٩٣٠-١٩٤٥ في الاتحاد السوفياتي، ومات ملايين آخرون في شتى أنحاء العالم.

شاكر النابلسي
كاتب أردني- امريكا

كذلك، نقرأ على "مسلّة الجوع" المُكتشفة في مصر، كواحدة من أقدم الوثائق الفرعونية في التاريخ البشري التي تؤرخ للجوع البشري على لسان أحد ملوك الفراعنة:

"إنني أنوح من أعلى عرشي المرتفع، بسبب البؤس الشامل الذي شاء ألا تأتي مياه النيل طوال سبع سنوات في أيامي. إن الحبوب نادرة، وكل فرد اصبح سارقاً لجاره. ويريد الناس أن يركظوا ولكنهم لا يستطيعون. الأطفال يبكون، والشبان يترنحون كالشيوخ، فقد تحطمت نفوسهم، وأيديهم تظل على صدورهم. ومجلس كبار البلاط مقفر. والخزائن فُتحت، ولكنها لا تحتوي على شيء سوى الهواء. لقد نفذ كل شيء".

ليس معروفاً بالضبط زمن هذه المسلّة، ولكنها بالقطع تعود على الأقل إلى خمسة آلاف سنة سابقة. وهي تصوّر بدقة حال بعض البلدان العربية. وقد سبق للكاتب الأردني أحمد الزعبي أن صوّر هذه الحالة بسخرية مريرة مرعبة بقوله:

" أصبحت مهنتي الرئيسية هذه الأيام الخوف والخوف فقط من الأسعار.

بعبع النفط قادم، وبعبع البرد قادم، وبالتالي بعبع الفقر قادم، رجاءً اختاروا الطريقة التي تناسبكم في تطميننا: لقاء صحفي، تصريح صحفي، برنامج تلفزيوني: ستون دقيقة، ١٢ دقيقة، يحدث اليوم، يحدث أمس، وجهاً لوجه، وجهاً لقفا، خبر مصوّر، خبر مكتوب، مصدر مقرّب، مصدر مسؤول.. أي شيء.

المهم أن يطمئن هذا المواطن المسكين الذي يلوك الخوف ليل نهار على أمنه المادي والحياتي والاجتماعي.

شخصياً أنا مرعوب.. هل تسمعون صرير حجابي الحاجز؟.....

الديمقراطية والجوع

لم تعد اشكالية الديمقراطية، أو معضلة النظم السياسية في العالم العربي هي الشغل الشاغل للشارع العربي، بل أصبحت مشكلة الغلاء وما يتبعها من مشاكل الجوع والفقر هي الشغل الشاغل الحقيقي لكثير من أقطار العالم العربي. ومن هنا نرى أن المثقفين والنُخب المثقفة في البلدان العربية الغنية والتي يصل معدل دخل الفرد فيها إلى أكثر من عشرة آلاف دولار، لا تتحدث عن الديمقراطية إلا من باب الترف الفكري، ذلك أن أحد أهداف الديمقراطية في أية دولة من الدول، وفي أي شعب من الشعوب هو تأمين دخل لا يقل عن عشرة آلاف دولار سنوياً. أما وقد تحقق مثل هذا الهدف، دون الوصول إلى رحاب الديمقراطية، وقبل تطبيق استحقاقاتها، فذلك خير وبركة في رأي الكثير من هذه النخب. وقد سبق أن قلنا في مقالات عدة، بأنه كلما ارتفع دخل الفرد السنوي في أي دولة من الدول انخفضت المطالب السياسية والعكس بالعكس.

وقد لاحظنا في دول الخليج عموماً – مثالاً لا حصراً –أن المطالبات الشعبية المختلفة للقيام بالإصلاحات السياسية، تخفُت في زمن الرخاء والوفرة، وتتعالى في زمن الشقاء والندرة.

خُرافة الجوع والنُدرة

هل يجوع العالم العربي في ٢٠٠٨ وما بعدها، ونشهد ثورات الجوع في هذا الجزء من العالم؟

وهل الجوع ونُدرة الموارد الطبيعية خُرافة أم حقيقة، تهدد الوجود العربي مستقبلاً؟

أم أننا نملك من الموارد الطبيعية ما يكفل لنا محاربة شبح الجوع، ولكن الجوع سوف يهلكنا فيما لو لم نستغل مواردنا الطبيعية استغلالاً حسناً؟

تقول إحصائية لعلماء جامعة "أيوا" الأمريكية، أن سبب الجوع الذي يهدد العالم يعود إلى إنه لا يُزرع الآن سوى ٤٤٪ من الأرض الصالحة للزراعة في العالم . وفي كل من إفريقيا وأمريكا اللاتينية، لا يزرع سوي أقل من ٢٥٪ من الأراضي التي يمكن زراعتها ، ويمكن لمحاصيل الحبوب في الدول النامية، أن تفوق الضعف مما هي عليه الآن . كما أنه بحسب الدراسة ذاتها . التي تعتمد علي الأرقام أيضاً . ليس هناك سبب فيزيائي يحول دون إنتاج الفدان في معظم بلداننا النامية بالمقارنة بالدول الصناعية، بل على العكس ، فإن الدول النامية يمكن للأرض التي تقدم محصولاً واحداً في السنة، أن تقدم محصولين أو أكثر بدلاً من محصول واحد .

القنبلة السكانية والجوع

تعتبر القنبلة السكانية وتزايد سكان بعض أجزاء من العالم العربي كمصر والمغرب من أخطر الأسباب المؤدية إلى الجوع وثوراته مستقبلاً. لذا، فعلينا أن نولي تجنّب الانفجار السكاني في العالم العربي أهمية بالغة. وأن نربط تفادي هذا الانفجار بتحسن ظروف التنمية الاقتصادية والاجتماعية. فمن الملاحظ مثلاً، أن من أكثر بلدان العالم العشرة غنىً وارتفاعاً في الدخل القومي السنوي GDP لا يزيد سكانها على خمسة ملايين نسمة، ما عدا اثنتين هما: سويسرا (٧ ملايين) والولايات المتحدة الأمريكية (٢٦٠ مليون).

إن علاقة الرفاهية بحجم سكان الدولة، كان نقاشاً مطروحاً منذ أيام أرسطو الذي نادى بتقليص حجم المدن الإغريقية. وقال، إن التجربة أثبتت أن الدول ذات التعداد السكاني الكبير من الصعب – إذ لم يكن من المستحيل – أن تُسير تسييراً مرضياً. وهذا المفهوم هو عكس ما كان يراه الآباء المؤسسون الأمريكيون. فقد رأى جيمس ماديسون (١٧٥١-١٨٤٦) الرئيس الرابع الأمريكي، أن تعداد الدولة السكاني الكبير سوف يساعد على تحقيق الديمقراطية، من حيث أنه يقلل من احتمالات سيطرة فئة على أخرى، وهضم حقوقها. ولقد أثار موضوع الانفجار السكاني وأثره على رفاهية الدولة مؤخراً، اثنان من كبار الأكاديميين الاقتصاديين الأمريكيين هما البيرتو آلاسينا الاستاذ بجامعة هارفرد، وإينريكو سبولور من جامعة براون، في كتابهما (حجم الأمم). وقد أشارا في هذا الكتاب إلى أن نصف دول العالم الآن، لا يتجاوز حجم سكانها ولاية ماساشوستيس (٦ ملايين). ويرى هذان العالمان، أن الدول الصغيرة أسعد حظاً في أوقات السلام، بينما تظل تكاليف الدفاع أرخص في الدول العملاقة، حيث تتوزع تكاليف الدفاع على أكبر حجم من دافعي الضرائب. ويرى هذان الكاتبان أن الدول الكبيرة تستطيع أن تُجبي مبالغ هائلة من الضرائب. ولكن لكل هذا ثمن باهظ. وأنه ينطبق على الدول الغنية أصلاً. أما الدول الفقيرة كدول الشرق الأوسط والعالم العربي بصفة خاصة، فلا مجال لها لتحسين أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية غير تحديد النسل، والتقليل من عدد السكان، كما فعلت تونس على وجه الخصوص.

لا ديمقراطية للجياع

لم تقطع الديمقراطية دابر التداول العنيف على الحكم، ولم تقلص العنف السياسي الجماهيري إلى أدنى تعبيراته إلا بفعل الحداثة الاقتصادية؛ أي تفوق معدلات النمو الاقتصادي على معدلات النمو الديموغرافي، حيث يُشكل الفقر عائقاً لتحقيق الديمقراطية. ففي معظم سكان البلدان العربية الكبرى، يعيش أكثر من ٥٠٪ تحت خط الفقر. والفقراء تعاملوا حتى الآن مع الانتخابات الديمقراطية إما بالاستنكاف عن التصويت (مصر)، وإما ببيع اصواتهم (المغرب والأردن ولبنان)، وإما بالتصويت الاحتجاجي لأكثر الحركات تعصباً وعنفاً (الجزائر). فالديمقراطية لا تتأصل إلا في مجتمعات الوفرة، إلى درجة أن أحد رؤساء البنك الدولي يقول أن بلوغ متوسط الدخل الفردي السنوي عشرة آلاف دولار، هو الشرط المناسب لتوطين الديمقراطية. عندئذ تتضاءل إمكانية التصويت الاحتجاجي والعنف السياسي، ويختفي بيع الأصوات. فالفقراء هم عادة – في معظمهم – ضحايا الأمية والجهل. وهذا لا يساعدهم على وعي أهمية الديمقراطية كعامل استقرار سياسي، يساعد على التنمية الاقتصادية باستقطاب الاستثمارات الخارجية، وباقناع الرساميل الداخلية بعدم الفرار. ولا يساعدهم فضلاً عن ذلك، على وعي أهمية حقوقهم المدنية، وهم الذين لم يترك مطلب توفير لقمة العيش في رؤوسهم مكاناً لأي مطلب سواه. فالفقر لا يدع لضحاياه الذين يستغرقهم النضال اليومي لمجرد البقاء على قيد الحياة، ترف الاهتمام بالرهان الديمقراطي الغريب عن اهتماماتهم وتطلعاتهم الفورية وعالمهم الذهني، كما يقول المفكر التونسي العفيف الأخضر.

الطفرة البترولية والجوع

مما لا شك فيه أن عصر الطفرة البترولية التي اجتاحت العالم العربي (١٩٧٤-١٩٨٥) قد ساهمت في تعطيل مشاريع عربية كثيرة، منها مشاريع الوحدة والديمقراطية والعلمانية، وكذلك الأخذ بآليات الحداثة. و بعد هذا التاريخ بدأت صدمة انكماش الطفرة البترولية والمالية بسبب الحرب العراقية- الإيرانية التي امتدت ثماني سنوات (١٩٨٠-٨٨) واستنزفت أكثر من اربعمئة مليار دولار من الأموال النفطية العربية، إضافة إلى انخفاض أسعار البترول. وسوف تتكرر هذه الطفرة على ما يبدو الآن بعد وصول أسعار البترول في شهر كانون الثاني ٢٠٠٨ إلى ١٠٠ دولار للبرميل، مما أتاح للدول العربية المنتجة للنفط تسديد فواتير حرب الخليج الأولى والثانية الطائلة اللتين كلفتا مبالغ كبيرة مقدارها ستمائة مليار دولار تقريباً، حسب بعض المصادر. وبذا يكون العرب قد دفعوا من أموال النفط خلال عشر سنوات (١٩٨١-٩١) حصتهم الكبرى من الألف مليار دولار ثمناً لحربين مجانيتين مجنونتين.

ومع بداية التسعينيات، وفي ظل الفقر العربي الذي عاد إلى العالم العربي، وإفلاس الخزائن المالية العربية، وتدني أسعار البترول، وزيادة نسبة البطالة، بدأ الخطاب العربي الحداثي يشق طريقه من جديد في الفكر العربي، فصدرت أكبر كمية من البحوث والكتب التي تعالج موضوع الحداثة في فترة التسعينيات، وعقدت أهم الندوات الفكرية حول موضوع الحداثة في تلك الفترة. وكأن العقل العربي في هذه الفترة التي انحط فيها الوضع الاقتصادي العربي قد عاد إلى وعيه، وأصبح يبحث عن البدائل لتلك الطفرة المالية العابرة، وعن حل لذلك التدهور الاقتصادي. وها هي الطفرة البترولية تعود من جديد مع بداية القرن الحادي والعشرين. فهل سينغمس العالم العربي مرة أخرى في الجنون الاستهلاكي، ويدع الحديث عن الحداثة جانباً بانتظار انحسار مالي جديد، وفقر قادم، حيث تكون الآذان صاغية لخطاب الحداثة الواعد بالخروج من الضيق والنفق؟ وهو ما تمّ التعبير عنه في بداية التسعينيات من أن "التنوير العربي سقط في أسطرة التنمية كإجهاض منظّم لمولد النهضة. ذلك أن التنمية العربية ارتبطت عضوياً بالثروة النفطية الطارئة، وطمست تحت بيارقها حقيقة التحدي التاريخي الذي كان على المشروع العربي الثقافي أن يتصدى له. وقد كان الفكر العربي قد شرع تنويره الحديث عندما عاجله منطق الثروة الهابطة من الفراغ، غير المشروعة، كبديل عن اكتشاف قوة الإنتاج النهضوي الحقيقية" كما قال المفكر السوري مطاع صفدي.

هل يشعل شبح الجوع الثورات؟

تقول التقارير أن ١٣٪ من سكان العالم العربي يعانون سوء التغذية؛ أي أن هناك ٣٩ مليون شخص في العالم العربي يعيش هذه المعاناة، وفقاً لاحصاءات منظمة "الفاو" العالمية. هذا برغم كون البلاد العربية غنية بمواردها الطبيعية وطاقاتها البشرية، فلماذا يخيم الجوع على كثير من المجتمعات العربية؟

وهل ارتفاع الأسعار، وخيبة أمل الناس في تغييرات سياسية انتظروها وتدني الأحوال الاقتصادية، هي أسباب نزول المواطنين إلي الشارع كما يقول الكاتب المصري سلامة أحمد سلامة.

فكثير من المراقبين يخشى أن يكون الجوع

–كما كان في فرنسا في القرن الثامن عشر

–سبباً لثورات سياسية عارمة. والدليل على ذلك أن ما يجري الآن من نزول الناس إلى بعض الشوارع العربية في مصر ولبنان والأردن والسودان والمغرب العربي مطالبين بسد الأفواه الجائعة، هو البدء بالمطالبة بالحقوق المادية والاجتماعية والانتهاء بالمطالبة بالحقوق السياسية وهو ما حصل في الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، مع وجود بعض الاستثناءات كالشعب المصري مثلاً، الذي يرى سلامة أحمد سلامة أنه ليس شعباً ثائراً بطبعه ما دام يجد لقمة عيشه. وهذا لا ينطبق على الشعب المصري وحده، وإنما ينساق على معظم الشعوب العربية، التي يخفُت صوتها بالاحتجاج والإصلاح السياسي في زمن الطفرة والوفرة، ويرتفع في زمن الجوع والندرة.

والسؤال هنا:

من يضمن أن تستمر الطفرة والوفرة بشكل عام في العالم العربي إلى ما لا نهاية، ولا ينتظر الجوع هذه الملايين من الأفوه الجائعة، خاصة في ظل انفجار القنبلة السكانية في كثير من الأقطار العربية الفقيرة، والتي تلتهم معظم نسب التنمية المتواضعة التي تحققها؟

الصيام كوسيلة لمقاومة الجوع

ويقول هذان الباحثان الفرنسيان في كتابهما، إن الفلسفات والأديان لم تستطع أن تتجاهل أقدم عدو للبشرية، وهو الجوع برغم فرض الصيام. ولكن ليس هناك من صيام يصل إلى درجة تعريض الحياة للخطر.

فالصيام في الأديان السماوية، فُرض على المؤمنين كوسيلة من الوسائل لمقاومة الجوع، وذلك بالاعتياد والتدريب عليه وممارسته كتقرب من الله عزّ وجل. كذلك، فقد فُرض الصيام على مجموعات من البشر، كانت تعيش في بلاد صحراوية قاحلة ليس فيها غذاء كثير، فجاء الصيام لكي يحقق هدفين: التقرب إلى الله، والتخفيف من الإستهلاك البشري للغذاء. ولكن المؤمنين قلبوا هذين الهدفين الساميين، فهم لا يتقربون إلى الله في فترة الصوم، حيث نرى البذخ المفرط في الطعام والشراب، ونرى ملء وقت أيام الصيام وليالي الإفطار، بما لا ينفع ولا يشفع.

التبذير والأديان والجوع

من ناحية أخرى، حضّت الأديان جميعها على عدم التبذير صيانةً للغذاء البشري، وتفادياً للمجاعات البشرية. وقال القرآن الكريم: ؟ ولا تُبذّر تبذيراً إن المُبذرين كانوا إخوان الشياطين؟ (سورة الإسراء، الآية ٢٦و٢٧). ويقول السيد المسيح لتلاميذه: "التقطوا الفتات الباقي لئلا يضيع شيء". ويقول أحد النصوص البوذية: "إن الفكرة الأساسية للحياة الرهبانية هي عدم تبذير أي شيء، والقيام بأفضل استعمال ممكن للأشياء كما أُعطيت لنا"